فتح الاندلس

(٥)

قد كتبت المعاهدة (بن عبد العزيز بن موسى وتدمير) بالعربية واللاتينية وحُفظت بتمامها في مكتبة الاسكوريال Escurial بمدريد وهي تبين لنا التساهل الذي اظهره العرب ويقول المؤرخ غبون Gibbon انها محفوظة في الجزء الثاني صفحة ٦ — ٦٠٥ بالعربية واللاتينية من كتاب Bibliotheca, Arabico-Hispana

وهي تبتدي بالبسملة ومن عمة تنص على ان لا يقاتل المسلمون تدمير ولا يسبوا نساءه مملكته ولا يفصلوا زوجة عن زوجها او ولداً عن امه وان لا يعارضوهم في دينهم ولا يحرقوا معابدهم بشرط ان يُسلّم مدنهُ السبع ويظل تدمير عاملاً لعبد العزيز عليها وهي Alicant Valentola Orihuela Lorca Bejar Vacasora Mola وان يدفع هو ومواطنوهُ ضريبة الاعناق وهي دينار على كل غني سنوياً اما الفقير فنصف دينار . وكان من الواجب ان يدفع اغنياؤهم اربعة مكاييل من القمح والشعير والعصير والخل والعسل والزيت وفقراؤهم نصف ذلك سنوياً وقد تم الاتفاق على هذه الشروط في الرابع من رجب سنة ٩٤ (٥ ابريل سنة ٧١٣)(١) وقد وقّع عليها اربعة من افاضل المسلمين كشهود على المتعاهدين وهم عثمان بن ابي عبده وحبيب بن ابي عبيده وادريس بن ميسرة وابو القاسم الموصلي

حقاً ان هذه الشروط خفيفة الوطأة خصوصاً في مقاطعة مرسيه الملقبة بجنة اسبانيا الخصيبة . حيث ينبت الزرع دون نصب لجودة الارض وكرم السماء(٢)

وكان عبد العزيز من خير الولاة اذ هدأ البلاد بتساهله وحلمه الاّ انّ مدنهُ لم تطل للنكبة التي انزلها الخليفة سليمان بن عبد الملك بابيه واهله . وذلك لما كان لهُ من النفوذ في افريقية والاندلس اذ استخلف على طنجه وما يليها من المغرب ابنهُ

(١) Decline and Fall of the Roman Empire. E. Gibbon. الجزء الخامس صفحة ٣٢٢ Coppé الجزء الاول صفحة ٣٣٠ Doné الجزء الاول صفحة ٧٦ — ٧٥

(٢) يقول المثل الاسباني « القمح في اربولة أمطرت ام لم تمطر » Coppé صفحة ٣٣١ من الجزء الاول

عبد الملك وافريقية عبدالله فصار جميع الاندلس والمغرب بيد اولاده. وقال آخرون ان موسى قدم على الوليد وان سليمان ولي العهد لما سمع بقرب موسى من دمشق وكان الوليد مريضاً امره بالتربص رجاء ان يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم هذا على سليمان في اول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة فيستبشر الناس ويعظم مقام سليمان عندهم فابى موسى من ذلك وجدّ في السير حتى سلم الوليد الاخماس والمغانم فلم يمكث الوليد يسيراً بعد قدومه حتى توفي فعقدها عليه سليمان واهانهُ واغرمهُ اموالاً طائلة ودسَّ الى اهل الاندلس بقتل ابنه فوثب الجند به بقيادة رجال سليمان واعدموهُ (١) ومقتلهُ من نوع التراجيديا وكان لهُ صدى مؤلم في الاندلس باجمعها

وقد مات موسى بن نصير وهو في منفاهُ بوادي القرى من افقر الناس يطلب الرحمة من الموكلين بهِ ليخففوا عنهُ العذاب. وهكذا قضى القائد الذي بسط نفوذ الدولة في اسبانيا وافريقية ذليلاً مهاناً

ولم يكن افتتاح العرب اسبانيا من المصائب على اهليها مع كل ما تأتى بهِ الحرب من الويلات. اجل كانت الفوضى ضاربة اطنابها عند ابتداء الفتح وقد احرق المسلمون بعض المدن واعدموا كثيراً من النبلاء ولكن الحكومة العربية بعد ذلك وطدت اركانها واصلحت خطأها واقرت السلام في الربوع وضربت بعصاً من حديد كل من ارتكب هذه المظالم وذلك ما جعل الاسبان ان يقبلوا حكمهم دون تذمر او شكوى وقد وجدوا فيهِ التساهل الذي طالما نشدوهُ اذ ابقوا لهم شرائعهم وقوانينهم وقضاتهم وعينوا عليهم حكاماً من انفسهم يناظرون الضرائب التي وجب دفعها للخزينة (٢)

وقد ظل العبيد في جميع الاقطاعات التي اختصها العرب بانفسهم واغلبها مما يخص الكنيسة والنبلاء والفارّين الى الشمال وما افتتحوهُ عنوةً وكانوا يفلحونها ويعملون فيها ويعطون اسيادهم العرب اربعة اخماس محصولاتها ويأخذون لانفسهم الخمس الباقي

اما اراضي الحكومة فكانت تؤلف الجزء الخامس من جميع المقاطعات التي

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٣١

(٢) Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الثاني صفحة ٣٨

وضع المسلمون ايديهم عليها . وكان من يعمل فيها من العبيد يدفعون للخزينة ثلث المحصولات فحسب ويأخذون لانفسهم الثلثين الباقيين. ولما كثر عدد المهاجرين من العرب الى اسبانيا صار العبيد يدفعون الثلث لهؤلاء المهاجرين بدلاً من الحكومة وذلك حسب ما اقتضتهُ ارادة الحكومة نفسها بتقسيمها لهم . وكان العبيد الذين يعمرون الارضين لبيت مال المسلمين يعرفون بالاخماس واولادهم ببني الاخماس(١)

واما سائر النصارى فكانت تتوقف حالتهم على المعاهدات التي عقدوها مع العرب وكان اكثرها يحفظ لهم مصالحهم. فاهالي ماردة الذين بقوا في المدينة حفظت لهم جميع املاكهم كما أسلفنا قبلاً الاّ انهم اجبروا على تسليم اموال الكنيسة. لكن تدمير او مرسيه التي تضم كثيراً من المدن فلم يدفع مسيحيوها شيئاً البتة وقد اصابهم الجزية فحسب وهي مما وجب دفعهُ على جميع الذميين . وعلى العموم فقد حفظ المسيحيون جميع املاكهم واذن لهم بحق التصرف بها من بيع او شراء وهذا حق لم يتمتعوا بهِ في ايام القوط

وكان عليهم ان يدفعوا ضريبة الاعناق السنوية وهي ثمانية واربعون درهماً على الغني واربعة وعشرون درهماً على متوسط الحال واثنا عشر درهماً على العمال والصناع وكانت تدفع على اثني عشر قسطاً اي في اواخر كل شهر قمري كان يسدد قسط . وقد أُعفي من دفعها النساء والكهنة والضعفاء والاطفال والعبيد وذوو العاهات(٢) وهذه الضريبة تسقط عمَّن يسلم

اما الخراج وهو عشرون في المائة من محصولات الارضين فذا واجب دفعه على المسلمين والمسيحيين سواء ولا يسقط باسلام احد

وما كانت الحكومة لتجبر احداً على اعتناق الاسلام بل قد خسرت خزينتها اموالاً طائلة لكثرة من دان بهِ فسقطت عنهُ ضريبة الاعناق

ومن حسنات الفتح العربي الثورة الفكرية الاجتماعية وهذه ذهبت بكثير من العادات البالية والتقاليد القديمة التي ناءت اسبانيا تحت اعبائها اجيالاً طويلة . فتلكم القوة التي كانت للنبلاء والكهنة كادت تصبح كلا شيء اذ ان الحكومة

(١) Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne, Appendice, No. 1.
(٢) Histoire des Musulmans d'Espagne. الجزء الاول صفحة ٤٠

وضعت يدها على ما كان لهم من الاقطاعات الكثيرة وفرقتها بين اناس عديدين وبذلك قلّت املاكهم وجُعل للزراعة يد قوية كانت تعمل لغيرها فاصبحت تنتج لنفسها

ومن حسناته ايضاً سعادة العبيد وهم سواد الشعب الاعظم وقد كانوا يمتقون بعد ان يخدموا سنوات قليلة اذ ان من اعتق عبداً في الاسلام كان يثاب ويعدُّ عملهُ مبروراً مشكوراً

وقد اعتنق اكثرهم الاسلام وذلك لان المسيحية لم تكن متمكنة منهم لتعلقهم بوثنيتهم القديمة . ومعتقد المسيحية كان على شفاههم اكثر منهُ في صدورهم(١)

اما وقد اتينا على حسنات الفتح فلنذكر الآن سيئاته ان اردنا العدل في حكمنا

ان الحكومة العربية صرّحت علناً بحرية الاديان ولم تضغط على احد من هذا القبيل ومع كل ذلك فالكنيسة المسيحية كان يرجع امرها الى السلطة العربية فكهنتها تعزلهم وتوليهم الحكومة ان شاءت وهكذا المؤتمرات الدينية فما كانت لتعقد الاّ باذن منها

ولما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جعلوا لا يعبأون بالمعاهدات التي عقدوها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم اليها حين ابتداء الفتح. ففي قرطبة عقدت الحكومة معاهدة مع مسيحييها تنص على حفظ كاتدرائية مار منصور Saint Vincent لهم ولكن حين كثرت المهاجرة السورية الى قرطبة جعل العرب نصفها جامعاً للمسلمين وهذا طبعاً غير ما تنص عليهِ المعاهدة

وحين اراد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٤ اقتناء النصف الآخر من الكاتدرائية اصرَّ على ذلك. ودفع لهم عنها مائة الف دينار واذن لهم في تشييد كنائسهم المهدومة . ان عبد الرحمن لم يغبنهم بل كان عادلاً في الثمن الذي دفعهُ لكنهُ بعد ذلك حجز املاك ارطباس احد ابناء غيطشه بحجة انها كثيرة على اسباني واحد وكان طارق قد عاهدهُ على حفظها وثبّت ذلك الخليفة نفسهُ

اجل ان الفتح كان برداً وسلاماً على الامة الاسبانية اذ كفاها آلام الاضطهاد وخلّصها من كابوس الموجات الجرمانية المؤلم اه انيس ذكريا النصولي

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne صفحة ٤٥